التدبر والبيان

في

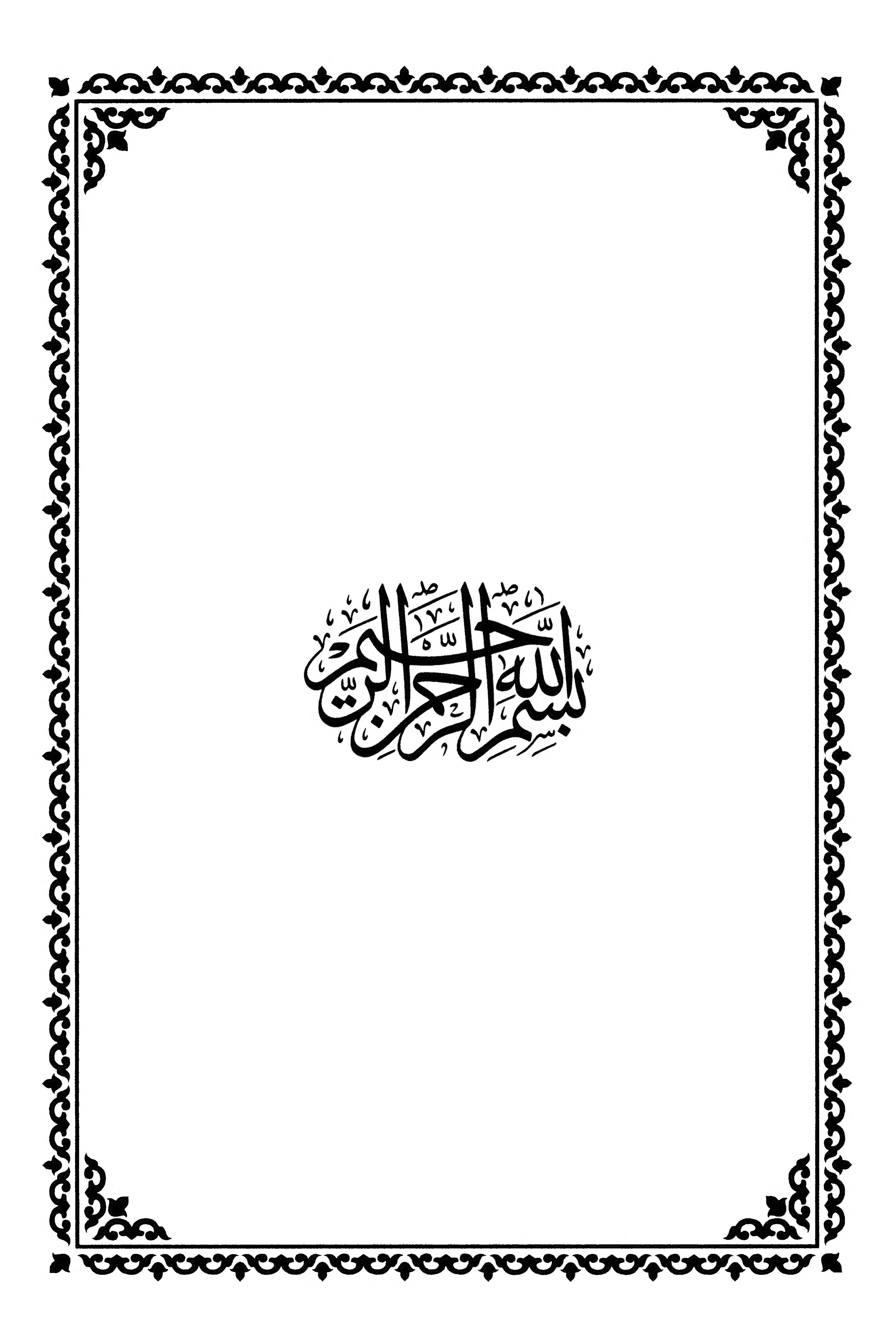
تفسير القرآن بصحيح السنن

تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الأول

الفاتحة - البقرة (١ - ٧٤)


بسم الله الرحمن الرحيم

التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن

الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ ـ ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis
التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 عدد الصفحات (40 مجلداً)
Size 17×24 cm قياس الصفحات
Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة
Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ ـ ١٤٧ ـ ٣٣ ـ ٩٩٥٤ ـ ٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التفسير

إن الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

وبعد: فإن أصدق الحديث كتاب اللَّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

نحمد اللَّه تعالى إذ وفقنا لإخراج هذا التفسير المبارك الذي سميته بـ«التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن» وكل مؤلِّف لا بد أن يكون له باعث وسبب في تأليفه، ولا بد أن يرسم لمؤلَّفه هدفًا يصل إليه، فنرجو اللَّه أن يوفقنا لبذل الأسباب التي تؤدي إلى تحقيق الأهداف السامية المباركة.

---

(١) آل عمران الآية (١٠٢).
(٢) النساء الآية (١).
(٣) الأحزاب الآيتان (٧٠و٧١).

أسباب التأليف:

وأما أسباب التأليف فهي عدة، أذكر منها:

- **السبب الأول:**

أحمد اللَّه وأثني عليه الخير كله أنني لما كنت صغيرًا حبب إلي القرآن وأهله، حيث دخلت إلى الكتاب في سن صغيرة، وكان أول ما غذيت به عقلي وروحي هو كتاب اللَّه تعالى، وما زلت أذكر -ولله الحمد- جميع المراحل التي مررت بها في حفظ كتاب اللَّه؛ من تعلم الحروف إلى ختامه كاملًا، وكان حفظي له في سن مبكرة ولعلها العاشرة أو الحادية عشرة، وفي ذلك الحين كنت أقيم الحلقات القرآنية؛ أملي على الطلبة من حفظي وأعلمهم وألقنهم، واستمررت على ذلك حتى دخلت المدرسة النظامية، ووصلت إلى المرحلة الإعدادية، وفي هذه المرحلة بفضل اللَّه كنت ألقي دروسًا في التفسير، وأصبحت هذه المادة هي المفضلة عندي في جميع مراحل التعليم التي مررت بها، ثم انتقلت إلى المرحلة الثانوية، حيث كان المقرر علينا هو تفسير الجلالين، وكان المدرس لهذه المادة أستاذًا قديرًا يَمَنِيّ الأصل اسمه: علي سنان رَحِمَهُ اللَّهُ، فكنت أطالع لدرسه كتاب «فتح القدير» و«تفسير القرطبي» وغيره من التفاسير، وكان يتعجب من مناقشتي له واستحضاري لكثير من أقوال المفسرين، وفي كلية الشريعة كان يدرسنا العلامة الشيخ محمد المختار الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ مادة التفسير، وكان يعتمد كثيرًا في تحضيره على تفسير القرطبي مع أن المقرر هو تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني، وقبل حضور درسه رَحِمَهُ اللَّهُ كنت أتتبع تفسير القرطبي، وأخرج أحاديثه من مصادرها المسندة، وكثيرًا ما كنت أناقش الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في درجة الحديث صحة وضعفًا، وبتواضعه المعروف رَحِمَهُ اللَّهُ كان أحيانًا يستعين بي في ذكر درجة الحديث، واستمررت في تخريج أحاديث تفسير القرطبي إلى سورة النساء؛ ثم انتقلنا بعد ذلك في فصل آخر في الكلية إلى دراسة سورتي الأنفال والتوبة مع شيخ جليل، ألا وهو الشيخ أبو بكر الجزائري ختم اللَّه لنا وله بالحسنى، زيادة على حضوري لدروس العلامة

الإمام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره في المسجد النبوي. فكان تفسير القرآن -ولله الحمد- مصاحبًا لي من بداية العمر، ونرجو اللَّه تبارك وتعالى أن يختم لنا بحب كتابه، وأن يجعلنا من خدامه، فلا غرو أن يشغف الإنسان بمحبوب له عرفه بعد نطقه للكلام في صغره.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا خاليًا فتمكنا

■ **السبب الثاني:**

لما تخرجت من المرحلة الثانوية، واخترت كلية الدعوة في أول الأمر، وكنت في السنة الأولى منها؛ التقيت ببعض المدرسين الفحول، وهو الدكتور محمود فائد رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان يدرسنا مادة التفسير، فاختلى بي يومًا، وسألني عن كيفية التعامل مع التفسير على الطريقة الحديثية، وكانت لي في ذلك الوقت عناية لا بأس بها بدراسة السنة سندًا ومتنًا، وكان المقرر علينا هو كتاب «فتح القدير» للعلامة محمد بن علي الشوكاني اليمني رَحِمَهُ اللَّهُ، فاستشارني الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في كيفية الربط بين كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ، فبينت له ذلك.

ولو كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ حيًّا؛ لأهديته نسخة من هذا السفر المبارك، الذي جمع بين القرآن، وفقه السنة، وخلاصة كلام أهل التفسير في كل آية، ولا يسعني الآن إلا أن أدعو له بالرحمة والمغفرة، فإن البارّ بشيوخه هو الذي يذكرهم بخير، ويدعو لهم.

فكان هذا سببًا من الأسباب الدافعة لجمع هذا الكتاب الذي أسأل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أن يكون مرجعًا للمدرسين وطلبة العلم، فأرجو اللَّه العلي القدير السميع البصير أن ينفع به، وأن يكون شافعًا لي يوم ألقاه، إنه سميع مجيب.

■ **السبب الثالث:**

لما أنهيت السنة المنهجية في مرحلة الماجستير للدراسات العليا فكرت في تسجيل موضوع لأنال به درجة شهادة الماجستير وكنت في شعبة العقيدة، فوقع في نفسي أن أبين عقائد المفسرين في الأسماء والصفات، فاستشرت الشيخ العلامة حمادًا الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ، فأعجبه الموضوع وأثنى عليه،

فسجلته وسميته «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات»، وقلبت صفحات المفسرين فظهر لي أن الكثير منهم لاسيما المتأخرون -إلا من رحم الله- ذهبوا مذهب التأويل الذي هو التحريف لمعاني آيات الصفات، والقصد هو أنهم ذهبوا مذهب الكلاميين من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية، ووجدت أن جميع الفرق المشهورة نهجت المنهج الكلامي من الشيعة والخوارج والأشاعرة والماتريدية، وحتى أصحاب القواميس اللغوية، والذين خصصوا تأليفهم للمفردات القرآنية نهجوا هذا المنهج، ووجدت ثلة قليلة ممن ساروا على درب السلف وأثبتوا الصفات كما أثبتها اللَّه وأثبتها رسوله ﷺ وأثبتها السلف الصالح، وقد أكملت بفضل اللَّه التأليف وناقشته في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وطبعت الكتاب، وقد وجد قبولًا ولله الحمد من قبل القراء، وأعددته للطبعة الثانية، وأضفت فيه من المفسرين ومن كتب اللغة والمفردات ما لم يكن في الطبعة الأولى فأصبح كتابًا كبيرًا جامعًا لكل المخالفين لمنهج السلف في باب الأسماء والصفات مع المثبتين والمتبعين لمنهج السلف الصالح رحمهم اللَّه جميعًا.

فأحببت بعد ذلك أن يكون لي تفسير متكامل سالم في جميع أبواب المعتقد في الأسماء والصفات والألوهية والقضاء والقدر، وبقية أبواب المعتقد؛ لأن الكتاب الأول -أي «المفسرون»- هو بمثابة التخلية والتنبيه على الأخطاء التي وقع فيها المفسرون، وأما التدبر والبيان فهو التحلية، وأرجو أن يكون بناءً متكاملًا في كل أبوابه من التفسير، فالذي ينتقد غيره ينبغي أن يعطي بديلًا عما انتقده، فلعلي أكون قد أدليت بدلوي واجتهدت ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولعلمائنا جميعًا منا الدعاء بالرحمة والمغفرة، فقد استفدنا وأفدنا من كتبهم ومصادرهم، ولكن كما قلت في كتابي «المفسرون»: أبى اللَّه أن يتم كتاب إلا كتابه، وقد لا يسلم كتابنا أيضًا من النقص، ومن ادعى الكمال في شيء فذاك دليل على نقصه.

■ **السبب الرابع:**

لقد اطلعت على كثير من كتب التفسير، ووجدتها لا تعنى بنصوص السنة

والاستدلال بها، وإن وُجدت فيها بعض النصوص فيغلب عليها عدم التوثيق والإسناد إلى مصادرها الأصلية، وقد يكون أحيانًا الحديث موضوعًا ولا أصل له، ومن العجيب والغريب أن تفسير الزمخشري على جلالة قدر صاحبه في اللغة العربية وبلاغتها تجد فيه من الطامات الحديثية ما يعرفه المبتدئون في علم الحديث، وخير مثال على ذلك ذكره عند صدر كل سورة حديثًا في فضلها مع أن الذي صح في فضائل السور قليل كما سيتضح ذلك إن شاء اللَّه في ذكرنا له من خلال كتابنا «التدبر والبيان». فلهذا السبب أحببت أن يكون هناك تأليف متكامل في تفسير القرآن بصحيح السنة، وقد تيسر ولله الحمد في ذلك مادة كبيرة كما سيأتي إن شاء اللَّه، وإن كان الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره قد أجاد وأفاد، ولعله لم يسبق له نظير في تصنيفه ما عدا كتب السلف المسندة كابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وعبد بن حميد وعبد الرزاق وسنيد بن داود وغيرهم من الأئمة المسندين للآثار المرفوعة والموقوفة في التفسير. وتبعهم في ذلك الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ، فقد جمع فأوعى في كتابه «الدر المنثور» وإن كان لم يلتزم الصحة لكنه يبقى ذخيرة من الذخائر ومرجعًا من المراجع، وقد بدأت تظهر في وقتنا الحاضر بعض الكتب التي تعنى بهذا الموضوع، فجزى اللَّه الجميع خيرًا على خدمة القرآن.

■ **السبب الخامس:**

رأيت بعض كتب التفسير قد سلكت مناهج لعلها لا تربط القارئ بكتاب اللَّه، وتوسعت في بعض العلوم التي إن استطرد فيها الإنسان خرج عن المقصود من هداية القرآن، فأكثروا من التفريعات اللغوية والنحوية؛ بل جعلوا كتبهم وتفاسيرهم متخصصة في قواعد النحو وشواذ اللغة والقراءات، فأشغلوا الناس بأمور لا علاقة لها بمعاني القرآن، وآخرون أغرقوا في محاولة مطابقة القرآن للمخترعات العصرية، فجعلوا القرآن وكأنه كتاب هندسة وعلوم رياضية وكيميائية وفيزيائية وجيولوجية، ولا شك أن الكثير من هذه المسائل فيه انحراف كبير عن حقيقة ما أُنزل القرآن من أجله، فالقرآن هو كتاب هداية كما وصفه من تكلم به، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (١).

فهو كتاب عقيدة وأحكام، وخلق وتربية، وقصص وأخبار وأمثال، فالواجب على أيّ مفسّر أن يهتدي بهدي السلف في فهم كتاب اللَّه، ولا يخرج عنهم قيد أنملة؛ فإن الانحراف عنهم انحراف عن سبيل المؤمنين.

فلهذا حاولت قدر المستطاع أن ألتزم في تفسيري هذا بالمعاني الهادفة والواضحة، مستنيرًا بطريقة السلف الصالح المثلى.

■ **السبب السادس:**

لما كنت مدرسًا في الدراسات العليا بكلية اللغة العربية اخترت للطلبة كتاب التفسير من صحيح البخاري؛ ليجمعوا بين دراسة السنة وفهم كتاب اللَّه بالفهم السلفي الصحيح، فوجدت هذا الكتاب ذخيرة من الذخائر، ورأيت فيه من التوفيق لصاحبه ما يدل على تقواه وورعه وعلى تعلقه باللَّه في سرائه وضرائه.

وقبل ذلك كنت أظن أن البخاري خصص هذا الكتاب في جامعه ليبين للناس تفسير كتاب اللَّه بسنة رسوله ﷺ، ثم تصفحت باقي «الجامع الصحيح» على أني ولله الحمد كان لي به صلة وثيقة، بل درسته على الشيوخ ودرّسته، فوجدت أن «الجامع الصحيح» من أوله إلى آخره هو من هذا القبيل. فالإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل كتابه «الجامع الصحيح» مرجعًا للأمة الإسلامية في كل عصورها. وقد سئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل كل ما يحتاجه المسلم يجده في سنة رسول اللَّه ﷺ؟ فأجاب: نعم.

فالبخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسم خطًّا في «الجامع الصحيح» للجمع بين القرآن والسنة في فهمهما وفقههما لم يسبق إليه. ولعل من جاء بعده نسج على منواله. فعزمت أن أجمع كل الآيات التي ذكر في ترجمة أبوابه مضيفًا إليها ما صح عنده من السنة، وأن أُفرد ذلك بعمل مستقل لأبين للناس عناية السلف بفهم كتاب اللَّه بسنة النبي ﷺ، ولما فعلت بدا لي أن أوسع المشروع، فنظرت في

(١) الإسراء: الآية (٩).

كتاب «الدر المنثور» فوجدته من أجمع الكتب في هذا الباب، فأخذت منه ما صح سنده، وما هو مناسب للمقام؛ فإن السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ أحيانًا يستطرد فيذكر رسائل بأكملها، فانتقيت ذلك وحمدت اللَّه على هذه النعمة. ثم نظرت في تفسير الحافظ ابن كثير، فأخذت منه ما زاد على «الدر المنثور»، وما سبق من أحاديث «صحيح البخاري»، ثم نظرت في تفسير القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه من أكثر الكتب عناية بالأحكام، ومن الكتب الجامعة، فهو اسم على مسمى، فأخذت الزائد على ما سبق. وهكذا نظرت في تفسير الزمخشري والبيضاوي وغيرهم ممن صنف في هذا الباب. فاجتمعت لي مادة حديثية فوزعتها على الآيات حسب موقعها ومدلولاتها، فكان هذا باعثًا قويًّا في هذا الجمع المبارك.

■ **السبب السابع:**

وصف اللَّه كتابه بأوصاف كثيرة مدحًا وثناءً، وجعله مصدر الهداية ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[5] . . .

ثم إن اللَّه تعالى أمر بتدبر القرآن في كثير من الآيات، كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[6]، وفي سورة (ص): ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[7].

---

(١) البقرة: الآية (٢).
(٢) الإسراء: الآية (٩).
(٣) الكهف: الآيتان (١و٢).
(٤) الأنعام: الآية (١٥٥).
(٥) فصلت: الآية (٤٤).
(٦) النساء: الآية (٨٢).
(٧) ص: الآية (٢٩).

واستفهم -تبارك وتعالى- استفهامًا توبيخيًّا لمن لا يتدبر القرآن، وغلظ فيه القول، بل جعل القلوب التي لا تتدبر القرآن قلوبًا مقفلة لا ينفذ لها خير: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(١).

بل جعل تبارك وتعالى الإعراض عن ذلك من تقييض الشيطان ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(٢).

وجعل المعرض عن كتابه أعمى في الدنيا والآخرة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾(٣).

وذكر اللَّه عن نبيه محمد ﷺ أنه شكا له من قومه أنهم اتخذوا هذا القرآن مهجورًا كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(٤).

فمن يجمع النصوص بكل أطرافها يجدها تدل بل توجب الارتباط بكتاب اللَّه قراءةً وحفظًا وتدبرًا وفهمًا وعلمًا وعملًا. فلذلك أحببت أن يكون هذا السفر المبارك -إن شاء الله- مما تبرأ به الذمة في ربط الناس بكتاب اللَّه ربطًا صحيحًا.

■ **السبب الثامن:**

لا شك أن وجود المسلم وخَلْقَه كان لغاية سامية، فاللَّه تعالى خص الإنسان بالعقل الكامل، وميزه عن سائر الحيوانات، بل سخر له كل ما في الأرض جميعًا وجعله في خدمته، وذلك لا لشيء يختص به، ولكن ليحقق العبودية الكاملة لله. وعبوديته لا تتحقق إلا بإنزال الكتب وبعثة الرسل رغم ما حباه اللَّه تعالى من فطرة سليمة وعقل كامل، فهو لا بد له من نبي يتبعه ويكون قدوة له، فحكمة اللَّه البالغة التي لا مرية ولا شك فيها؛ اقتضت أنه لا يترك عباده هملًا، ولهذا نجد كثيرًا من الآيات القرآنية تبين الحكمة من إنزال الكتب وبعثة الرسل، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا

(١) محمد: الآية (٢٤).
(٢) الزخرف: الآية (٣٦).
(٣) طه: الآيات (١٢٤-١٢٦).
(٤) الفرقان: الآية (٣٠).

أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾[٥]. . . فالالتصاق بكتاب اللَّه ليس اختيارًا، وإنما هو فرض وإلزام باعتباره السبيل إلى عبادة اللَّه تعالى، وتحقيق الخلافة في الأرض، وكلٌّ بحسبه.

■ **السبب التاسع:**

القرآن كتاب هداية، وهو الكتاب الوحيد الذي اختص بتفصيل المعتقد بأصوله وفروعه، وإسلام المرء لا يتم إلا بتصحيح المعتقد.

ولهذا نجد عناية الرسول ﷺ واضحة في ذكر فضائل سور وآيات المعتقد أكثر من غيرها، كما صح عنه ﷺ في فضل الفاتحة وآية الكرسي وسورة الكافرون وسورة الإخلاص، وما صح عنه ﷺ في فضائل باقي السور لما تحمله من أمهات المعتقد.

فدراسة المعتقد ليس هو من باب الفرض الكفائي، وإنما هو من باب الفرض العيني، وربط الناس بكتاب اللَّه فهمًا ودراسةً هو ربطهم بما يجب عليهم، فالانحراف في المعتقد ليس هو كباقي الانحرافات الأخرى، فاصطلاحاته عند العلماء شديدة، فيصفون المنحرف فيه بالمشرك، ويصفونه بالمرتد، ويصفونه بالمبتدع، كلٌّ بحسبه. أما الوقوع في المعاصي ما خلا الشرك باللَّه فيوصف صاحبها بالفاسق أو العاصي. فلذلك فالعناية بكتاب اللَّه وفهم معانيه تقي المسلم من هذه الأخطار.

---

(١) النحل: الآية (٣٦).
(٢) الروم: الآية (٤٧).
(٣) الزخرف: الآية (٦).
(٤) الحديد: الآية (٢٥).
(٥) المائدة: الآية (٤٨).

■ **السبب العاشر:**

رد شبه أهل الشرك والجاهلية، فإن اللَّه تعالى أنزل القرآن العظيم هدى للعالمين ورحمة لهم، يحمل في طياته كل خير، ويكشف عن كل سوء وباطل يدعيه مدّعٍ، وأول ما نزل نزل في مجتمع عربي جاهلي، يحمل أصولًا جاهليةً ورثها بالتبع عن غيره، وتسربت إليه بطرق مختلفة، فتشابهت شبههم وتطابقت مع المخالفين لدعوات الأنبياء السابقين، فجاء في القرآن العظيم كشف لهذه الشبه التي كان يلقيها إبليس على لسان المشركين والمنافقين والكفرة، ومنها:

● **الشبهة الأولى: الاحتجاج بموروث الآباء وعوائد الأجداد:**

كان من أعظم الشبه التي ورثها المشركون عن الأجيال السابقة والمشركين السابقين؛ ردهم توحيد الألوهية بدعوى أنه مخالف لدين الآباء والأجداد.

وقد ذكر اللَّه عن قوم صالح، وهم من أقدم أمم الشرك بعد قوم نوح وعاد، قال اللَّه فيهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1]، وقالها قوم إبراهيم لما سألهم عن عبادة الأصنام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2]، وقالها قوم شعيب، قال اللَّه عنهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[3]، وقالها فرعون وقومه لموسى ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وأما مشركو العرب فأكثروا من ذكرها، وجعلوها السد المانع بينهم وبين التوحيد، قال اللَّه عنهم: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ

(١) هود: الآية (٦٢).
(٢) الشعراء: الآيات (٧٠-٧٤).
(٣) هود: الآية (٨٧).
(٤) يونس: الآية (٧٨).

ﭐلْأَخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾(١)، وقال عنهم في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(٢).

ويظهر من خلال هذه الآيات أن هذه الشبهة كانت عند عموم الأمم، وأن هذه الشبهة اخترعها المترفون المتمردون على توحيد اللّٰه، والذين يرون أن التوحيد سالب لعظمتهم، وأن بقاء الأمم على الشرك يصب في مصلحتهم، سواء كانوا أغنياء أو رؤساء أو لهم شأن وبال في أمتهم. وما أشبه اليوم بالبارحة! فإن دعاة الشرك والبدع والضلالة هم في غالب الأمم من علية القوم، ويرون المصلحة الكاملة لهم في بقاء الأمة على عبادة القبور والأوثان من أشجار، وأحجار، ومغارات، وشيوخ مقدسين... فيحبون أن تبقى الأمم على هذه الوثنية، بل يدعمونها بالمال والمشاركة في كل ما يخدم أهداف هذه الشركيات من حفلات، ومواسم، وذكريات، وغيرها من بحور وأنهار وروافد للشرك الأكبر، فصدق اللّٰه العظيم إذ يخبرنا بهذه الآيات العظيمة أن المترفين في كل أمة هم دعاة الشرك والضلال. اللهم يا رب نجنا من شركهم وضلالهم وبدعهم بمنك وكرمك.

• الشبهة الثانية: التشكيك في النبوات بكون الأنبياء بشرًا:

هذه الشبهة تواطأ عليها مشركو الأمم السابقة واللاحقة، وهو وصفهم للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- بأنهم مجرد بشر، وهذه الصفة في نظرهم تمنع من قبول رسالتهم، مع أن اللّٰه تبارك وتعالى عضد رسله بآيات تبين خصوصيتهم، ولم يأت نبي من الأنبياء إلا وله آيات تدفع هذه

---

(١) ص: الآيتان (٦و٧).

(٢) الزخرف: الآيات (٢٠-٢٥).

الشبهة، وتبين أن لهذا النبي خصائص اختص بها، وآية واحدة من آياته تعجز البشرية عن الإتيان بمثلها، فلو كان هؤلاء يعقلون ويفهمون لنظروا إلى الآيات التي أيد اللَّه بها أنبياءه، فهي تحير العقول، وتبهر الألباب، وتجعلها منقادة -إن كانت عاقلة- لما جاء به هؤلاء الأنبياء الموصوفون بالبشرية.

وكل نبي من الأنبياء رسالته آية من الآيات، وأول آياته دعوته إلى توحيد اللَّه، وكل من يتصفح تواريخ الأمم يرى أن جميع المدعين للنبوة بأي ظهور وُسِمُوا به؛ لا تكون دعوتهم دعوة للتوحيد، وإنما هي دعوات لمآرب وأغراض شخصية يطمع فيها الداعي لنفسه، كدعوات فرعون، وقارون، والملك الذي ناظر إبراهيم عليه السلام، الذي زعم أنه يحيي ويميت. . . فدعوات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- تتميز بالدعوة إلى التوحيد وإفراد اللَّه بالعبادة، وإلى الشرائع النافعة التي فيها مصلحة الدارين. فلو كانت الأمم تعقل لنظرت إلى حقيقة دعوة النبي عليه السلام، ولصرفت النظر عن هذه الشبهة الواهية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى لو بعث نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى البشر من غير جنسهم لما قبلوا ذلك، ولطلبوا أن يكون المخاطب من جنسهم حتى يثقوا بخطابه ويألفوه، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[(١)].

وخلاصة الكلام أن القرآن جاء لتفنيد هذه الشبهة، وأنها دعوى لا معنى لها إلا الانحراف عن النبوة والرسالة، قال اللَّه تعالى عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾[(٢)]، وقال اللَّه عن قوم عاد: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[(٣)]، وقال اللَّه عن فرعون وقومه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾[(٤)]، وقال تعالى عن أصحاب القرية لما جاءهم الرسل من ربهم: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ

(١) إبراهيم: الآية (٤).
(٢) هود: الآية (٢٧).
(٣) الأعراف: الآية (٦٩).
(٤) المؤمنون: الآية (٤٧).

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾(٢)، وقال الله تعالى في عموم الرسل: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣)، وآخرهم الذين قالوا للنبي ﷺ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾(٤).

وهكذا تجد هذه الشبهة تناقلتها الأمم الرادة لدعوة الأنبياء أمة أمة.

اللهم إنا نؤمن بأنبيائك ورسلك جميعًا لا نفرّق بين أحد منهم، ونؤمن بأنهم دعاة رحمة وهداية، وأنهم من البشر، وأن اللَّه فضلهم وخصّهم على البشر باصطفائهم واختيارهم أنبياء ورسلا لأممهم، فاللهم صل وسلم عليهم جميعًا.

- **الشبهة الثالثة: وصف الأنبياء بأوصاف يريدون بها إبطال النبوة:**

لقد حاول المشركون بكل ما أوتوا من جهد ووسائل أن يردوا دعوة التوحيد بالطعن في الأنبياء عليهم السلام وآخرهم محمد ﷺ، وحاولوا الإطاحة بهم ووصفهم بأوصاف كثيرة، وأن ما أتوا به إنما هو من قبيل السحر أو الكهانة أو الشعر أو غير ذلك مما أرادوا به نفي صفة النبوة والرسالة عنهم، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ

(١) يس: الآية (١٥).
(٢) يونس: الآية (٢).
(٣) إبراهيم: الآيتان (١٠و١١).
(٤) الفرقان: الآية (٧).
(٥) يونس: الآية (٢).

هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[٥].

- **الشبهة الرابعة: التشكيك في الكتب السماوية:**

لقد كان دأب المشركين في دعوتهم الباطلة التشكيك في الكتب السماوية وكونها منزلة من عند اللَّه، فقالوا بأنها مفتراة، ووصفوها بما لا يليق بها، وبالخصوص القرآن، فقد بذل أعداء النبي ﷺ جهدهم للصد عن كتاب اللَّه، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم، واستعانوا بغيرهم من الحاقدين على النبوة والرسالة من اليهود وغيرهم، ووصفوا هذا الكتاب العظيم بأنه من أساطير القدماء، وأن النبي ﷺ إنما يتعلمها من غيره، ويعينه عليها آخرون، أو أنهم لو شاءوا أن يأتوا بمثله لفعلوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٨]،

(١) الأنبياء: الآية (٥).
(٢) الصافات: الآيتان (٣٦و٣٧).
(٣) ص: الآية (٤).
(٤) الذاريات: الآيتان (٥٢و٥٣).
(٥) القلم: الآيات (١-٧).
(٦) الأنعام: الآية (٢٥).
(٧) الأنعام: الآية (٩١).
(٨) الأنفال: الآية (٣١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾(٣)، وقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(٤)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٥)، وقال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾(٦)، وقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ

(١) يونس: الآيات (٣٧-٤١).
(٢) هود: الآية (١٣).
(٣) النحل: الآيات (١٠١-١٠٥).
(٤) الإسراء: الآية (٨٨).
(٥) الفرقان: الآيات (٤-٦).
(٦) الشعراء: الآيات (٢١٠-٢١٢).

طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾(٢)، وقال تعالى في سورة الحاقة في الرد عليهم: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾(٣).

- **الشبهة الخامسة: إنكار البعث والنشور:**

لقد أكثر اللّٰه من الرد على هذه الشبهة الباردة، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾(٤)، فصدق اللّٰه العظيم في كتابه، فعدله تبارك وتعالى يقتضي أن لا يضيع أحدًا؛ بل هو سبحانه يتجاوز عن المسيئين، ويعفو عن المذنبين، ورحمته وسعت كل شيء، فهو الخالق، وبيده الملك، وهو على كل شيء قدير، وتفرد تبارك وتعالى بكمال العلم، وكمال الحكمة، وكمال القدرة، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويقول للشيء: كن، فيكون، قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾(٥)، وقال عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(٦)، وقال جل شأنه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، ثم قال ردًّا عليهم: ﴿قَدْ

---

(١) الطور: الآيات (٢٩-٣٤).

(٢) القلم: الآيات (٨-١٦).

(٣) الحاقة: الآيات (٣٨-٤٦).

(٤) المؤمنون: الآيتان (١١٥و١١٦).

(٥) الإسراء: الآيتان (٥٠و٥١).

(٦) الزخرف: الآية (١١).

عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[4].

فالعاقل هو الذي يعلم ربه بفطرته، ويتساءل عن خلقه وأصله، كيف وُجِدَ ومن أوجده؟ وبذلك يتبين له أن اللَّه على كل شيء قدير، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[5].

لكن كفار قريش أنكروا البعث والنشور لكبرهم وعنادهم، ولجهلهم المطبق، كما قال اللَّه عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾[6]، ولعل هؤلاء القوم هم قوم

---

(١) ق: الآيات (٢-١٥).
(٢) النحل: الآية (٧٧).
(٣) القمر: الآية (٥٠).
(٤) القيامة: الآيات (٣٦-٤٠).
(٥) الحج: الآيات (٥-٧).
(٦) المؤمنون: الآيات (٣٣-٣٨).

صالح فيما قاله بعض المفسرين، وأيًّا ما كان فإن هذا الأصل فاسد، والشبهة تافهة، توارثتها الأمم جيلًا بعد جيل حتى وصلت إلى العرب، فتبنوها ودافعوا عنها دفاعًا مستميتًا، وقد ذكر اللَّه تعالى في القرآن أقوالهم، ورد عليهم بردود حسية يرونها بأبصارهم، وذكر اللَّه تعالى في سورة البقرة أمثلة خمسة كلها أدلة قطعية ويقينية في البعث والنشور، وجعل اللَّه سبحانه لعيسى عليه السلام من الآيات إحياءه الموتى بإذنه سبحانه، وذكر اللَّه تعالى في سورة (يس) مثالًا حيًّا تعرفه العرب في واقعها المعيش فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. فالعرب استعملت في هذه الشبهة قياساتها العقلية وآراءها الباطلة، فنتج عنها إنكار البعث والنشور، ومن عجيب الأمر أنه ورد في بعض أشعار شعراء الجاهلية، كشعر زهير وغيره إثباته، لكن عناد المشركين وكبرهم أوقعهم في هذه المزلة والموبقة، ولهذا تصدى لهم القرآن، وكشف النقاب عن جهالتهم، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾[2]، وغيرها من الآيات.

ولهذا جعل اللَّه التصديق بالبعث من أركان الإيمان، فمن أنكره أو شك فيه فقد خرج عن دائرة الإسلام، ونصوص القرآن في ذلك كثيرة، وفي حديث جبريل: «**أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن**

---

(١) يس: الآيات (٧٧-٨٣).

(٢) الصافات: الآيات (١٥-٢١).

بالقدر خيره وشره»[١].

ولولا الإيمان باليوم الآخر ما طابت الحياة، ولما اجتهد مجتهد في الخيرات والصالحات. وفرق شاسع بين الأمة التي تؤمن باليوم الآخر، وبين الأمة التي تنكره، فهذه الأخيرة تعمها الفوضى، ويسود فيها الفتك، والنهب، والسرقة، والقطيعة الاجتماعية بين الآباء والأبناء والأقارب والأحباب، وتنعدم الأخوة بينهم، فلا رحيم، ولا أب، ولا ولد، وتنحط أخلاقهم، وتسفه عقولهم، وخير مثال على هذا الواقع حال المجتمعات الغربية اليوم، بخلاف المجتمعات التي يسود فيها هذا الأصل فتراها تعمها الرحمة، ويجتمع شملها، كأنها أسرة واحدة، لا يضام فيها الضعيف، ولا يضيق فيها على المسكين، وكلٌّ ينظر إلى الآخر بعين الأخوة والمواساة، يهتم بعضهم ببعض أحياءً وأمواتًا، حتى ترى هذا التراحم والمودة في إكرام الميت وتوديعه...

فالذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر لا تقوم له قائمة، ولهذا أقسم الله على هذا الأصل العظيم وقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[٢].

ومن شاء الوقوف على التفصيل في رد هذه الشبه؛ فليتتبع آيات القرآن الكريم، فهي بحمد الله صواعق مرسلة على دعاة الباطل الذين يقطعون الطريق على النبوات والرسالات، لاسيما مشركي قريش الذين أجلبوا بخيلهم ورجلهم -كما سبق- في رد رسالة النبي ﷺ، ولكن الله جل وعلا أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وجعل نهايتهم في قليب بدر، وسلط عليهم عبيدهم، وفرق بين من مات على الشهادة كأصحاب رسول الله ﷺ ومن سلك طريقهم، وبين من مات منتصرًا للشرك والبدع والضلالات، كهذه الثلة العنيدة.

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٧-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢-٤٧٥/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤-٢٥/ ٦٣) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) التغابن: الآية (٧).

وهذه الشبه لو شئنا لبسطناها بسطًا، ولكن يكفي في ذلك الإشارة، فلهذا كانت من أسباب تأليف هذا السفر المبارك؛ لأن تفنيد الشبه وتكذيبها مما يجب على الداعي إلى اللَّه. وإن يطل اللَّه في العمر فسأخصص كل شبهة من هذه الشبه بمؤلف خاص، وأشرف أن أكون من المنتصرين للَّه ورسوله ﷺ.

■ **السبب الحادي عشر:**

النصيحة للَّه ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، فربط الأمة بكتاب اللَّه حفظًا وفهمًا وعلمًا وعملًا هو من أنصح النصح وأفضله، فدعوة لا ترتبط بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ؛ لا خير فيها، وهي دعوة دنيوية يجري أصحابها وراء جمع الحطام حسًّا ومعنًى. فنرجو اللَّه تبارك وتعالى أن يجعلنا من الناصحين لكتابه والناصحين لنبيه ﷺ ولأنفسنا ولإخواننا ولعامة المسلمين.

➢ **العمل في الكتاب:**

مما لا شك فيه أن الذي يريد أن يسلك طريقة السلف في تفسير كتاب اللَّه لا بد له أن يركز على أصولهم التي اعتمدوها في فهم وتفسير كتاب اللَّه. والأصول التي اعتمدها السلف بالاستقراء والتتبع هي كالآتي:

■ **الأصل الأول: تفسير القرآن بالقرآن:**

وهذا أصل عظيم، إذا خلا منه أي تفسير من التفاسير كان مبتور المعاني، وقد أجمع السلف والخلف على أن أصح طرق التفسير وأجلها تفسير القرآن بالقرآن؛ إذ هو تفسير قطعي بقطعي، ليس فيه شيء من الظن، فصاحبه هو الذي أنزل كتابه، فالعلم كله عنده، لا يقارن علمه جل وعلا بعلم أحد من خلقه، وبهذا لو علم المسلمون هذا الأصل وأهميته للقنوه صبيانهم في مقتبل أعمارهم لما له من أهمية كبرى، وإدراك هذا الأصل في حد ذاته أمر سهل ميسور؛ لأن الآيات المفسِّرة أو المفسَّرة إنما هي آيات محفوظة لا يحتاج فيها إلى أكثر من التنبيه، ولا إلى أكثر من التدبر، الذي يجعل المفسر يستحضر الآيات ويقارن بينها، فهذه آيات فيها إجمال، وآيات أخر تفصله،

وهذه فيها إطلاق، وآيات أخر تقيده، وهذه فيها عموم، وآيات أخر تخصصه، وهذه فيها إشارات وآيات أخر فيها تصريحات، وهذه فيها مفهوم المخالفة، وآيات أخر فيها مفهوم الموافقة، وهذه آيات منسوخة، وآيات أخر ناسخة لها، وهذه آيات فيها غريب يصعب فهمه، وآيات أخر تفسره وتسهل معانيه، وهكذا لو أخذ المفسر المصحف وقلّبه بين لوحيه لوجد بغيته بكل يسر وسهولة.

والأمثلة في ذلك كثيرة، ومن أهمها قصص الأنبياء -عليهم صلوات اللَّه وسلامه-، فقد تأتي القصة في بعض الآي مجملة وفي بعضها مفصلة. ولعل بدراستنا لهذا الكتاب يتبين ما أشرنا إليه وسطرناه.

وسلفنا الصالح -رضوان اللَّه عليهم- سبقوا إلى هذا الأصل، وأولوه عناية فائقة، ولعل الإمام ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ مثال لذلك. وأما الإمام ابن كثير فقد بلغ القدح المعلى في هذا الباب؛ فقلما يفوت الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الأصل في تفسيره الرائع المفيد.

وقد ادخر اللَّه للإمام العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ هذه المكرمة، فخصها بالتأليف، وجمع أطرافها من بداية القرآن إلى قوله تعالى من سورة المجادلة: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فقد اخترمته المنية فلم يكمله، فأكمله تلميذه الشيخ عطية محمد سالم رحمهما اللَّه تعالى رحمة واسعة، فكان كتاب «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» معلمة كبرى بسط فيها العلم بسطًا، وجمع أطراف الآيات كلها، فكان غنيمة، وكان عينًا معينًا يشرب منه المحبون لكتاب اللَّه كلٌّ بقدره. والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أطال النفس في كثير من المباحث الفقهية، فأخذنا من تفسيره ما يناسب المقام، وتركنا تلك المباحث الطويلة التي لا نراها تتناسب مع ما رسمناه في هذا الكتاب، فاستفدنا منه الكثير، واختصرناه اختصارًا، كما أخذنا تفسير القرآن بالقرآن من تفسير الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وما بدا لي ذكره شخصيًّا، فاعتمدنا هذا الأصل اعتمادًا، وجعلنا وجوده حاضرًا في كل

---

(١) المجادلة: الآية (٢٢).

آية يفسر فيها القرآن بالقرآن، فهذبنا هذا الأصل من أصوله، وجعلناه سهلًا يسيرًا في تناوله، والحمد للَّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه.

■ **الأصل الثاني: تفسير القرآن بالسنة النبوية:**

ولا شك أن هذا الأصل أساس في تفسير كتاب اللَّه؛ لأن القرآن نزل على رسول اللَّه ﷺ، فهو المفسّر الأول من أهل الأرض الذي يفهم القرآن فهمًا معصومًا لا خطأ فيه، إذ هو ﷺ منزه ومستحيل في حقه الخطأ في فهم القرآن وفي تبليغ الوحي، ولهذا قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل ما قاله الرسول ﷺ أو فعله أو أقره فهو مما فهمه من كتاب الله». فهو ﷺ المبين عن اللَّه مراده، وقال اللَّه تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]، وقال له: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾[2]. وهو مرجع الصحابة -رضوان اللَّه عليهم- في فهم كتاب اللَّه، فكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على سعة فهمهم وصحة لغتهم إذا أشكل عليهم شيء في فهم كتاب اللَّه جاءوا إلى النبي ﷺ يسألونه، كما صح أن الصحابة سألوا الرسول ﷺ عن قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[3]، ففسر لهم الرسول ﷺ الظلم بالشرك كما في الصحيح[4]. وكذلك لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[5] جاء الصحابة إلى رسول اللَّه ﷺ يستشكلون هذه الآية، فحذرهم الرسول ﷺ أن يكونوا مثل بني إسرائيل لما قالوا: سمعنا وعصينا، فأنزل اللَّه الآيات التي بعدها فخفف اللَّه عنهم وعنا[6]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

(١) النحل: الآية (٤٤). (٢) النساء: الآية (١٠٥).

(٣) الأنعام: الآية (٨٢).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٧٨)، والبخاري (٨/ ٣٧٣/ ٤٦٢٩)، ومسلم (١/ ١١٤-١١٥/ ١٢٤)، والترمذي (٥/ ٢٤٥/ ٣٠٦٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤١/ ١١١٦٦) كلهم من حديث عبد اللَّه بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) البقرة: الآية (٢٨٤).

(٦) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٢)، ومسلم (١/ ١١٥-١١٦/ ١٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والقرآن قد جمع الإسلام كله لاسيما المعتقد، بل إن معظم آيات القرآن كلها في المعتقد، وبقية الآي في الحلال والحرام، والتحلي بمحاسن الأخلاق والتحذير من مساوئها، فإذا كان القرآن قد تضمن الإسلام كله بمعتقده وشرائعه ومعاملاته وأخلاقه؛ فلا بد له من نبي يفسره، وقد كان ذلك كذلك. ولعل المتأخّرين من المسلمين يفهمون بأن تفسير السنة للقرآن إنما هو التفسير المباشر للفظ فقط، كما مر معنا في تفسير النبي ﷺ الظلم بالشرك مستدلًّا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]. وليس الأمر كذلك، فتفسير القرآن بالسنة هو كل ما يبين معاني الآيات، سواء كان ذلك من قريب أو بعيد، إشارةً أو لفظًا، وهذا هو الذي فهمه السلف الصالح -رحمهم الله- من تفسير القرآن بالسنة، ولقد أجاد وأفاد الإمام أبو إسحاق الشاطبي، حيث ذكر فصلًا نفيسًا في كتابه «الموافقات»، بيّن فيه علاقة الأصل الأول بالأصل الثاني بيانًا شافيًا، فمن شاء رجع إليه فهو مبذول، فلا حاجة لي أن أطيل بذكره ههنا. وقد أعطى الإمام ابن جرير هذا الأصل حقه ومستحقه من بيان القرآن بالسنة، وغيره من أئمة التفسير كابن مردويه وعبد بن حميد وابن أبي حاتم الذين نقل عنهم الحافظ ابن كثير أحاديث بأسانيدهم إلى النبي ﷺ، وهذا مما تميز به الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وأما الإمام البخاري رحمه الله فكان المثل الأعلى في ربط القرآن بالسنة، وتفسير كتاب اللَّه بسنة رسول اللَّه ﷺ في كتابه «الجامع الصحيح» كما سبق، والذي يتتبع هذا الأصل ويتضلع فيه يجد تيسيرًا كبيرًا في فهم كتاب اللَّه. ولهذا كانت تفاسير السلف أصح علمًا، وأقوم فهمًا، وأقل تكلّفًا، والبعد عن هذا الأصل يورث جهلًا بكتاب اللَّه، ويوقع المفسر في أخطاء جسيمة، وطوام كبيرة تبعده عن الحق، وتلتبس عليه الأمور التباسًا، وما أمر الزمخشري ومن حذا حذوه عنا ببعيد، رحمهم اللَّه وغفر لنا ولهم، والشأن نفسه يقال عن تفاسير الشيعة والخوارج. . . فبقدر ابتعاد الإنسان عن الخير والسنة بقدر اقترابه من الضلال والبدعة.

---

(١) لقمان: الآية (١٣).

فالمفسر لا بد له أن يكون على علم واسع بسنة رسول اللَّه ﷺ حتى يهتدي إلى الحق، وقد قال اللَّه تعالى في حق نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1]، فاتباعه ﷺ هداية، والبعد عنه ﷺ غواية.

ولهذا اعتمدنا في هذا التفسير المبارك على السنة اعتمادًا، وبذلنا الجهد والطاقة في متابعة السنة المناسبة للآية، ولم نتشدد في التصحيح في هذا الباب، فكلما تبين لنا أن درجة الحديث قد تصل إلى درجة الحسن قبلناه واعتمدناه، فتحصل لدينا في هذا التفسير المبارك قرابة عشرة آلاف حديث، بدايةً من البحث الخاص بالاستعاذة وانتهاءً بتفسير سورة الناس.

وإيرادنا للحديث في هذا السفر المبارك كان ولله الحمد على بصيرة، فقد حاولنا أن نربط القرآن بالسنة بتبويب اعتمدناه يجمع بين الآيات والأحاديث الواردة في تفسيرها، وراعينا في ذلك عموم القراء، فيسرنا الأمور تيسيرًا، وحاولنا الكشف عن غريب الحديث ومفرداته حتى لا يتعثر القارئ في المفردات الغريبة الغامضة، وأخذنا من الحديث فقهه المناسب للآية، واعتبرنا أن كل حديث بفقهه هو تفسير لكتاب اللَّه تنجلي به المعاني وتتضح، ولعل هذه الطريق أمثل الطرق في فهم كتاب اللَّه والغوص في معانيه.

■ **الأصل الثالث: فهم السلف لكتاب الله:**

لا مرية أن السلف -رحمهم اللَّه- هم أعلم الناس، وأتقاهم لله، وأقلهم تكلُّفًا، وأصفاهم ذهنًا، وأقربهم زمانًا من النبوة والرسالة، واتباع سبيلهم توفيق وهداية، والانحراف عن طريقهم بعد وغواية، رضي اللَّه عنهم وأرضاهم، وجعل الجنة مثوانا ومثواهم. وقد أخذ أئمة المفسرين بهذا الأصل واعتمدوه، وجعلوا تفاسيرهم مزدانة بكثرة النقول عنهم، وما تفسير ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا مثال على ذلك، فقد أجهد نفسه رحمة اللَّه عليه في استقراء أقوالهم، وتتبعها بالأسانيد إليهم، فكان سفره المبارك مرجعًا لمن جاء بعده، ولهذا لم يتجاوزه الحافظ ابن كثير في نقله عن السلف، فابن كثير

---

(١) الشورى: الآية (٥٢).

ولو قلنا فيه ما قلنا من تعظيم لعلمه، وجلالة قدره، وصفاء عقيدته ومنهاجه؛ فإنه لا يعدو أن يكون ملخصًا لتفسير الإمام ابن جرير في نقله لأقوال السلف الصالح ﷺ، وإن كان الإمام ابن كثير متفرّدًا بإمامته، مستقلًّا بها، يتجلى هذا في ملاحظاته على ترجيحات واختيارات الإمام محمد بن جرير الطبري؛ نظرًا لسعة علمه وتبحره واطلاعه على كثير من نصوص السنة وآثار السلف الصالح التي لم يطلع عليها ابن جرير الطبري، زيادة على تنوره واتصاله ببحر العلوم الشرعية واللغوية الإمام الحافظ تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني الدمشقي سليل بيت العلم والعلماء، ومصاهرته لأكبر إمام عرف في ذلك الزمان على وجه الأرض شيخ الإسلام أبي الحجاج المزي، وزمالته لأئمة فحول كان لهم وله ما تناقلته سطور التاريخ من صولات وجولات في العلم والعمل، والرد على أئمة البدع والمنحرفين، كالعلامة ابن القيم، والذهبي، وغيرهم من السلسلة الذهبية المتصلة بسند شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقد ضرب الإمام البخاري في «الجامع الصحيح» وغيره من كتبه المثل الأعلى في نقله لأقوال أئمة السلف ودراستها، وترجيح ما يناسب النص الحديثي. وهكذا الإمام ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة، وأبو جعفر الطحاوي، وسنيد بن داود، وعلامة الأندلس الإمام الحافظ ابن عبد البر، وغيرهم كثير. فاتصال الخلف بالسلف سند صدق وتوفيق وهداية، والانفصال عنهم حمق وسفه وغواية، وما ابتلي أحد ممن انتسب إلى العلم بالبعد عنهم إلا وأعمى اللَّه بصيرته، ونال من سخط اللَّه وغضبه، ووقع في حمأة الضلال، وصارت معلوماته لعنة عليه إلى يوم الدين، كما حصل للحلوليين من أئمة الضلال، والاتحاديين؛ كابن عربي، وعبد الحق بن سبعين، وابن الفارض، وغيرهم كثير ممن نسج على منوالهم إلى يومنا هذا، وكالكلاميين والفلاسفة ومن تبنى منطق اليونان ممن أهلكوا الحرث والنسل، وأفسدوا على الأمة عقائدها، فقد ملئت الكتب -مع الأسف- بنقولاتهم وتحريفاتهم لكتاب اللَّه، كما فعل الزمخشري ومن سار على دربه؛ كالرازي، والبيضاوي، والنسفي، وغيرهم ممن بينت مخالفاتهم في كتابي «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات».

وقد اعتمدنا هذا الأصل في تفسيرنا المبارك، ولخصناه تلخيصًا، واخترنا ما نراه موافقًا لهذا الأصل من جميع الكتب المؤلفة في التفسير، فكلما وجدنا عبارة تناسب هذا الأصل انتقيناها واخترناها وإن كان المفسر ليس على منهج السلف في كل تفسيره، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها.

وقد حاولت قدر الإمكان أن أنقل من هذه التفاسير ما يوضح معنى الآية؛ لأن الذي يهمني في هذا التفسير المبارك أن تتجلى المعاني لدى القارئ وأن لا يبقى عنده أي توقف في المعنى، وركزت على هذا الأصل تركيزًا، وأخليت كتابي كاملًا من كل ما يزاحم هذا الأصل، فلم أشتغل بتفريعات لغوية، أو نحوية، أو تطويل في بيان لأوجه قراءات الآيات، سواء القراءات المجمع عليها أو الشاذة، ولا ألجأ إلى شيء من هذا إلا إذا اقتضت الحاجة، واضطررت إلى الاستشهاد بما يخدم المعنى؛ لأنني أرى أن هذه العلوم لها شعب أخرى تخصصت في دراستها، وكتاب اللَّه كتاب كبير، وآياته كثيرة، وعدد سوره -ولله الحمد- مائة وأربع عشرة سورة، وآياته ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية على خلاف في العد، فالتفرغ لمعانيه هو الواجب على كل دارس لكتاب اللَّه، ولهذا أردفت كل آية بما صح عن النبي ﷺ في السنة القولية أو الفعلية أو التقريرية، وربطت ذلك بعنوان يربط الآية بالحديث حتى تنجلي المعاني، ولا يبقى فيها أي لبس.

وأحيانًا أعلق على قولٍ أو على عبارة من العبارات سواء تعلق الأمر بأقوال أهل التفسير أو أقوال شرّاح الحديث؛ لأبين أحيانًا الراجح من المرجوح، وأحيانًا لربط كلام أهل العلم بواقعنا المعيش؛ فإن كلام اللَّه صالح لكل زمان ومكان، وآياته تتجدد في كل لحظة، كأنما جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد نزل به اليوم غضًّا طريًّا، فالذي يقارن القرآن بالواقع لا يجد الفرق الزماني بين واقعنا المعيش وبين زمان نزول أمين السماء على أمين الأرض صلى اللَّه عليهما وسلم جميعًا.

وحاولت أن يكون عند تفسير كل آية في هذا السفر المبارك حضور لشيخ العلم، وشيخ السلفيين، وشيخ الحق والدفاع عنه؛ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، فاجتهدت قدر المستطاع أن تكون أقواله رَحِمَهُ اللَّهُ حاضرة في كل آية

استطعت أن أقف له على قول يناسب تفسيرها، وكأنك إذا قرأت هذا التفسير تقرأ تفسيرًا لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقد كنا نسمع ونحن طلبة أن للشيخ تفسيرًا في ألمانيا مخطوطًا، وكنا نتشوق لذلك ونتشوف، ولكن لحد الآن لم نر برهانًا على هذه الدعوى إلا ما جمع من كلامه هنا وهناك. ومحبتنا للشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إنما هو لأجل محبته لسنة رسول اللَّه ﷺ ودفاعه عنها، فحبنا له حب للسنة ولإمامها وصاحبها محمد ﷺ.

فرحمة اللَّه على شيخ الإسلام ابن تيمية إذ أفدنا من أقواله وبحوثه ورسائله ما تزين به تفسيرنا. وتلميذه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا يقل أهمية عن شيخه في هذا الباب، فقد استفدنا من بحوثه وجواهره التي تتلألأ بالسنة وحبها، وترجيحاته النافعة، ومن قرأ ما كتبناه علم فضيلة هذين الإمامين العظيمين.

وقد استفدنا من الإمام المصلح بحق، المجدد للقرون المتأخرة المظلمة، التي أظلمت بالشرك والبدعة والجهل، والظلام الذي كاد أن يطبق على أهل الأرض، العلامة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، نور اللَّه ضريحه، وأسكنه فسيح جنانه، هو ومن سار على دربه، فله جواهر وفوائد وفرائد تكتب بماء الذهب، شَرَّفْنا تفسيرنا بنقلها. ولعل ما نقلناه عن هؤلاء العلماء الأخيار يكون -إن شاء الله- شفاعة لنا يوم نلقاه.

فدونك تفسير صاحبه محب لهؤلاء الأخيار الفضلاء؛ فإن ذلك ينفعك إن شاء اللَّه، وينفع كل قارئ محب لهذا المنهج المبارك منهج السلف الصالح.

■ **الأصل الرابع: معرفة اللغة العربية:**

إن اللغة العربية هي المفتاح الأساس لفهم كتاب اللَّه، وهي صراط لا يمكن التنكب عنه ولا التنكر، فهي المعبر الأساسي لفهم القرآن والسنة، بل لفهم الشريعة كلها. وأي عالم لا يتمكن في اللغة العربية لا يمكن أن يصل إلى فهم مراد اللَّه في كتابه، ولا مراد رسول اللَّه ﷺ في سنته. وقد أخذنا من هذا الأصل ما يناسب المقام، واخترنا من كل آية ما نراه صعبًا في فهمه على عموم القراء، ففسّرناه كلمةً كلمةً، وسميناه غريب الآية؛ على ما فعله الأقدمون رحمهم اللَّه في إفرادهم لغريب القرآن بمؤلفات سموها بالغريب

وسموها بالمفردات. فالفراء له كتاب جيد، والزجاج، والراغب الأصبهاني له كتاب «المفردات»، وغيرهم كثير، إلا أن الذي يلاحظ على كثير ممن ألف في هذا الباب أنه يغتر بتأويل المؤولين في باب الصفات، فلا يتبع منهاج السلف في الإثبات، فانتقيت هذه المفردات، ونزهتها عن كل انحراف عقدي وقع فيه بعض المؤلفين رحمهم اللَّه، فكنت وسطًا بين المتتبعين لكل مفردة على حدة، وإطالة النفس في اشتقاقاتها وذكر نظائرها، وبين المختصر اختصارًا شديدًا لا يفصح عن معنى الكلام. فكان ذلك -ولله الحمد- عنوانًا لكل آية فيها من الكلمات الغريبة ما يحتاج إلى توضيح، وليس كل آية فيها الغريب من الكلمات. فالحمد للَّه أن جمعنا بين تفسير الكلمة مفردة وبين معاني الآيات بوضوح ظاهر لا يبقى معه أي غموض أو لبس، فأحيانًا قد ننقل أكثر من قول للمفسرين حتى يتضح المعنى تمامًا.

هذا وقد أمضينا زمانًا طويلًا يربو على خمس عشرة سنة، وهذا في خدمة كتاب اللَّه جهد قليل، وعمل يسير، فلو أنفقنا أعمارنا كاملةً من ولادتنا وإلى دخولنا القبور لكان في حق كتاب اللَّه قليلًا وهينًا ويسيرًا، وكتاب اللَّه أكبر من ذلك وأعظم، بل لو اجتمع أهل الأرض كلهم على خدمته ما كان ذلك كثيرًا في حقه، ويكفي هذا الكتاب شرفًا أنه كتاب اللَّه، وأن الذي نزل به من عند اللَّه هو سيد الملائكة وإمامهم وأمينهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على أعظم رجل ولدته امرأة من آدم إلى أن تقوم الساعة، محمد بن عبد اللَّه القرشي الهاشمي ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1].

هذا -ولله الحمد- لنا مؤلفات أخرى وفقنا لخطها وجمعها، نرجو بذلك شفاعة ورحمة من اللَّه تعالى، وأعظمها ما فرغنا من تأليفه، وهو هذا السفر المبارك «التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن»، والموسوعة الكبرى العقدية التي سميتها «العقيدة السلفية في مسيرتها التاريخية وقدرتها على مواجهة التحديات»، وقد قسمتها إلى ثمانية أقسام: التعريف بالعقيدة السلفية وأصولها، والدراسة التفصيلية للعقيدة السلفية، والمخالفون للعقيدة السلفية، ومواقف الأنبياء العقدية،

---

(١) الشعراء: الآيات (١٩٣-١٩٥).

ومواقف الرسول ﷺ العقدية، ومواقف السلف الصالح العقدية، والمصادر العلمية في الدفاع عن العقيدة السلفية. وقد طبعت بعض الأقسام من هذه السلسلة المباركة، ونرجو اللَّه أن يتم النعمة، فيظهر الجميع بحلة طيبة نافعة. وكذلك الموسوعة الكبرى «فتح البر في الترتيب الفقهي لتمهيد ابن عبد البر»، وقد طبع، والآن نعد الموسوعة للطبع من جديد، وسلسلة «الإحسان في اتباع السنة والقرآن لا في تقليد أخطاء الرجال»، وهي عبارة عن رد على أحد الصوفيين المحترقين ببلاد المغرب، وكتاب «من سب الصحابة ومعاوية فأمه هاوية»، وكتاب «حاجتنا إلى السنة»، وكتاب «الأسباب الحقيقية لحرق كتاب إحياء علوم الدين بأمر من خليفة المسلمين ابن تاشفين»، وكتاب «موقف الإمام مالك من العقيدة السلفية»، وكتاب «تعظيم قدر النبي ﷺ»، وكتاب «وقفات مع الكتاب المسمى دلائل الخيرات»، وكتاب «دعوة سلف الأمة إحياء الكتاب والسنة»، وغيرها من الكتب النافعة، نرجو اللَّه أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

هذا وقد شارك جماعة من طلبة العلم في هذا التفسير المبارك، فنفعنا اللَّه ببحوثهم ومشاركتهم ومساعدتهم، باحثين، وكتابًا، فجزاهم اللَّه خيرًا، وجزى خيرًا كل المساعدين والمموّلين، وبارك فيهم، ونفع بهم الإسلام والمسلمين.

* * *